وإنك لعلى خلق عظيم

سيرة عظيم الأخلاق (٢٧)

حادثة الإفك وصلح الحديبية

أولا: حادثة الإفك

عباد الله في سعينا لتنبيه القلوب الغافلة، وفي محاولاتنا لتزكية النفوس اللاهية، وفي تبليغنا عن قوى الكفر العاتية، وفي دراستنا للسيرة التي توضح ما نريد، نعرف كل ذلك بل نعرف المزيد.

فبين نفحات العطر وومضات الإشراق نستكمل سيرة عظيم الأخلاق محمد ﷺ.

وها قد رأينا أن الرسول ﷺ والصحابة رضي الله عنهم قد دان لهم الأمر، وعلم العالم الكفري أن ما يريدونه بعيد المنال.

بيد أنه لما كان الإسلام دعوة تغالب النظام السائد كانت مخاصمته تتخذ طريق الجهر والتهجم دون مبالاة.

فلما استقر الأمر وتوفرت لأبنائه أسباب القوة سلكت عدواته المسارب التي تسلكها الغرائز المكبوتة، فأمسى الكيد له يقوم على المكر والدس إلى جانب الوسائل الأخرى التي يعالن بها الأقوياء.

وائتمار الضعفاء في جنح الظلام لا يقل خطورة عن نكاية الأقوياء في ميادين الصدام.

ثم إن المرء قد يألم لإشاعة ملفقة أكثر مما يألم لطعنه مواجهة.

وفي الحروب الفاجرة تستخدم جميع الوسائل التي تصيب العدو، وإن كان بعضها يستحي من استخدامه الرجل الشريف.

وقد لجأ المنافقون في المدينة إلى مناوأة النبي ﷺ ودعوته بأسلوب تظهر فيه خسة النفس الإنسانية عندما يسيطر عليها الحقد ويغلب عليها الضعف، أسلوب اللمز والتعريض حينًا، والإفك والافتراء حينًا آخر.

والبون بعيد بين أصناف الرجل الذين عادوا الإسلام ورسوله، لقد كان أبو جهل خصمًا لدودًا لكل من دخل في هذا الدين، وكان طاغية عنيدًا لا تنتهي لجاجته، إلا أنه كان كالضبع المفترس لا يحسن الالتواء والوقيعة، حمل السيف في وضح النهار، ومازال يقاتل به حتى صرع.

أما عبد الله بن أُبي فقد اختفى كالعقرب الخائنة ثم شرع يلسع الغافلين، قبع هذا المنافق في جنح الظلام وبدأ ينفث الإشاعات المريبة وتولى في غوايته إلى حضيض بعيد فلم يبال أن يتهجم على الأعراض المصونة وأن ينسج حولها مفتريات يندى لها جبين الحرائر العفيفات.

في عودة الرسول ﷺ من غزوة بني المصطلق إلى المدينة نبت حديث الإفك، وشاع واجتهد خصوم الله ورسوله أن ينقلوا شرره في كل مكان؛ قاصدين من وراء هذا الأسلوب الجديد في حرب الإسلام أن يدمروا على الرسول ﷺ بيته وأن يسقطوا مكانة أقرب الرجال لديه وأن يدعوا جمهور المسلمين بعد ذلك يضطرب في عماية من الأسى والغم.

وللوصول إلى هذه الغاية استباح أُبي لنفسه أن يرمي بالفحشاء سيدة لا تعرف الشر، ولا تهم بمنكر، ولا تحسن الحياة إلا في فلك النبوة العالي، وهي التي تربت في حجر الصديق وأعدت لصحبة نبي في الدنيا والآخرة.

وتلقف العامة هذا الحديث الغريب وهم في غمرة الدهشة لا يدرون مبلغ الخطر الكائن في قبوله ونقله، فقد بينت السيدة عائشة رضي الله عنها عنها هذه الحادثة: **"كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ فَأَيُّهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ، فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ فَكُنْتُ أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلَ دَنَوْنَا مِنْ الْمَدِينَةِ قَافِلِينَ آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ،**

فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي فَلَمَسْتُ صَدْرِي فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ ظَفَارِ قَدِ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، قَالَتْ: وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يُرَحِّلُونِي فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ عَلَيْهِ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَهْبُلْنَ وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، إِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ الْقَوْمُ خِفَّةَ الْهَوْدَجِ حِينَ رَفَعُوهُ وَحَمَلُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الْجَمَلَ فَسَارُوا، وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا مِنْهُمْ دَاعٍ وَلَا مُجِيبٌ، فَتَيَمَّمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي، وَكَانَ رَآنِي قَبْلَ الْحِجَابِ فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي، فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي وَوَاللَّهِ مَا تَكَلَّمْنَا بِكَلِمَةٍ وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ، وَهَوَى حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ، فَوَطِئَ عَلَى يَدِهَا، فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ وَهُمْ نُزُولٌ، قَالَتْ: فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَ الْإِفْكِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، قَالَ عُرْوَةُ: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ كَانَ يُشَاعُ وَيُتَحَدَّثُ بِهِ عِنْدَهُ فَيُقِرُّهُ وَيَسْتَمِعُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ، وَقَالَ عُرْوَةُ أَيْضًا: لَمْ يُسَمَّ مِنْ أَهْلِ الْإِفْكِ أَيْضًا إِلَّا حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَمِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ، وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكِ، لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ يَرِيبُنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لَا أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي، إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيُسَلِّمُ، ثُمَّ يَقُولُ: كَيْفَ تِيكُمْ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ فَذَلِكَ يَرِيبُنِي وَلَا أَشْعُرُ بِالشَّرِّ حَتَّى خَرَجْتُ حِينَ نَقَهْتُ، ولما علمت رضي الله عنها "قَالَتْ: فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَلَّمَ،

ثُمَّ قَالَ: كَيْفَ تِيكُمْ، فَقُلْتُ لَهُ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ، قَالَتْ: وَأُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، قَالَتْ: فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ لِأُمِّي: يَا أُمَّتَاهُ مَاذَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟ قَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ هَوِّنِي عَلَيْكِ فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةً عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا لَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا، قَالَتْ: فَقُلْتُ سُبْحَانَ اللَّهِ أَوَلَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا؟ قَالَتْ: فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ أَبْكِي، قَالَتْ: وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ يَسْأَلُهُمَا وَيَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، فَقَالَ أُسَامَةُ: أَهْلَكَ وَلَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا، وَأَمَّا عَلِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَمْ يُضَيِّقْ اللَّهُ عَلَيْكَ وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَسَلِ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ، قَالَتْ: فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَرِيرَةَ فَقَالَ: أَيْ بَرِيرَةُ هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ؟ "قَالَتْ لَهُ بَرِيرَةُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا قَطُّ أَغْمِصُهُ، غَيْرَ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ، قَالَتْ: وَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي، وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ حَتَّى إِنِّي لَأَظُنُّ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي، فَبَيْنَا أَبَوَايَ جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي، فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنْ الْأَنْصَارِ فَأَذِنْتُ لَهَا فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي، قَالَتْ: فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْنَا فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ، قَالَتْ: وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلَهَا وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي بِشَيْءٍ، قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ جَلَسَ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ إِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ ثُمَّ تَابَ؛ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، قَالَتْ: فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، فَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِّي فِيمَا قَالَ، فَقَالَ أَبِي: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيمَا قَالَ، قَالَتْ أُمِّي: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لَا

أَقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ كَثِيرًا: إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا الْحَدِيثَ حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، فَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ لَا تُصَدِّقُونِي، وَلَئِنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ، لَتُصَدِّقُنِّي، فَوَاللَّهِ لَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ حِينَ قَالَ: فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ، ثُمَّ تَحَوَّلْتُ وَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي حِينَئِذٍ بَرِيئَةٌ، وَأَنَّ اللَّهَ مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي، وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ مُنْزِلٌ فِي شَأْنِي وَحْيًا يُتْلَى، لَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بِأَمْرٍ، وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ بِهَا، فَوَاللَّهِ مَا رَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَجْلِسَهُ وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرَحَاءِ حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِنَ الْعَرَقِ مِثْلُ الْجُمَانِ، وَهُوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ، قَالَتْ: فَسُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَضْحَكُ فَكَانَتْ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ: "يَا عَائِشَةُ أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ بَرَّأَكِ، قَالَتْ: فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِلَيْهِ، فَقُلْتُ وَاللَّهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، فَإِنِّي لَا أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ ﷻ، قَالَتْ: وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ

﴿ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ١١ - ٢٠]"[1].

في هذه الحادثة العجيبة على ما فيها من شدة وألم على رسول الله ﷺ سيد الأولين والآخرين، وعلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وكانت في وقتها لم تبلغ العشرين سنة من عمرها المبارك، وعلى أبيها الصديق رضي الله عنه أفضل ولي بعد الأنبياء والمرسلين، وعلى أمها أم رومان، وعلى صفوان بن المعطل، وعلى كل مؤمن يتألم لألم رسول الله ﷺ، فإن كان فيها من الشدة والألم، فإن فيها من الدروس والعبر والتربية للأمة ما يفوق هذا الشر بكثير.

والذي حكم بذلك هو الله ﷻ يقول جل شأنه بعد أن انصهر المؤمنون في جحيم هذه الحادثة أكثر من خمسين يومًا: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[النور: ١١].

فتعالوا معي لهذه الدروس الكثيرة جدًا وسوف أجمل كثيرًا منها في ثلاث نقاط:

أولًا: فتور الوحي

فقد تأخر الوحي هذه الفترة لكي تتجلى للناس حقائق كل منهما في غاية الأهمية:

أما الحقيقة الأولى، فهي أن النبي ﷺ لم يخرج بنبوته ورسالته عن كونه بشرًا من الناس، فلا ينبغي لمن آمن به أن يتصور أن النبوة قد تجاوزت به حدود البشرية، فينسب إليه من الأمور أو التأثير في الأشياء مالا يجوز نسبته إلا لله وحده.

أما الحقيقة الثانية، فهي أن الوحي الإلهي ليس شعورًا نفسيًا ينبثق من كيان النبي ﷺ كما أنه ليس شيئًا خاضعًا لإرادته، أو تطلعه، وأمنياته، إذ لو كان كذلك لكان من السهل عليه أن ينهى هذه المشكلة من يوم ميلادها ويجعل مما يعتقده من الخير والاستقامة في أهله قرآنًا يطمئن به أصحابه المؤمنين.

---

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٤١٤١)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٧٧٠).

أما الحقيقة الثالثة، ليرفع الله بذلك أقوامًا ويخفض آخرين فيكون ابتلاءً لجميع المسلمين. ويظهر للرسول وللمؤمنين سرائر المنافقين، ولتتم العبودية المرادة من الصديقة وأبويها. ولتشتد الفاقة والفقر إلى الله والذل له وحسن الظن به ولينقطع رجاؤها من المخلوقين. ولتستشرف قلوب المؤمنين للوحي، فوافى الوحي أحوج ما كان إليه رسول الله ﷺ وأهل بيته، فورد عليهم ورود الغيث على الأرض، فوقع منهم أحسن موقع وألطفه، فلو أنزل الله الوحي مباشرة لفاتت هذه الحكم وأضعافها.

ثانيًا: علو الإسلام وتعاليمه وعلو أخلاق ودين من يسير فى فلكه

فلننظر إلى الصديقة بنت الصديق ننظر إلى صبرها واستشهادها وهي حديثة السن بقول يعقوب ﷺ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾[يوسف: ١٨]، وكيف عندما بُرِّئت حمدت الله ووحدته، وعلمت أنه هو الذي يبرئها.

ظُلمت فصبرت والتجأت إلى الله ﷻ، يقول ﷺ: **"وَلَا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا"**[1]، فازدادت رضي الله عنها عزة وشرفًا، فكم ارتفع شأنها حين نزل بإبرائها قرآن يتلى إلى يوم القيامة، وكانت غاية ما تتمناه أن يرى لها رسول الله ﷺ رؤيا.

وكانت رضي الله عنها لحسن خلقها وحسن اتباعها لأخلاق الدين المجيد، كانت تكره أن يسب عندها حسان، وتقول إنه الذي قال:

"فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي ... لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ"[2]

نعم أخطأ حسان لما حمل الكلام، ولكن الله غفور رحيم.

وانظروا عباد الله إلى صفوان بن المعطل هذا الرجل الورع الشريف وكفى به فخرًا أن الرسول ﷺ في وقت الإفك قال عنه: **"مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا"**[3]، وكان صفوان يقول:

---

[1] أخرجه الترمذي رحمه الله في سننه (٢٣٢٥)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (٢٣٢٥).

[2] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٤١٤١).

[3] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٤١٤١)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٧٧٠).

"**سُبْحَانَ اللَّهِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا كَشَفْتُ مِنْ كَنَفِ أُنْثَى قَطُّ**"[1]، وكان عاقبة تقواه وصبره لهذه المظلمة أن رزقه الله ﷻ الشهادة.

وأيضًا نرى السيدة زينب بنت جحش مع أنها كما قالت السيدة عائشة ﵂: كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ، ومع أنها امرأة وعندها من الغيرة التي يمكن بها أن تتكلم عن ضرتها، ومع أن أختها حمنة بنت جحش كانت ممن تكلموا في عائشة، ومع ذلك كله لما سألها رسول الله ﷺ وقال لها: "**مَا عَلِمْتِ، مَا رَأَيْتِ؟ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلَّا خَيْرًا، قَالَتْ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي، فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالْوَرَعِ**"[2].

وانظروا عباد الله إلى أبي بكر الصديق والمعاناة التي كان يعاني منها، فها هو على وشك أن يفقد منزلته عند رسول الله ﷺ، بل يفقد كرامته بين العرب، وهو من هو من سيادة وشأن بينهم، ومع ذلك الذي يتناقل هذا الخبر هو مسطح بن أثاثة، وكان من قرابة أبي بكر وكان فقيرًا ﵁، وكان أبو بكر الصديق ينفق عليه، فلما علم أبو بكر الصديق براءة أمنا عائشة ﵂ قال: "**وَاللَّهِ لاَ أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ مَا قَالَ لِعَائِشَةَ ...**" فأنزل الله يعلمه، ويعلم الأمة، ويتمم مكارم الأخلاق، ويضع هذا الدين بشرائعه، وحكمه، وآدابه، عاليًا: ﴿ **وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾[النور: ٢٢] ، فقال أبو بكر ﵁: "**بَلَى، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ**"[3].

---

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٤١٤١)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٧٧٠).

[2] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٤١٤١)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٧٧٠).

[3] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (١٤١٤)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٧٧٠).

أما الدرس الثالث:

هو عظم قذف المحصنات، الذي تولى كبره هو عبد الله بن أبي، وتهاون بعض المؤمنين بنقل حديث الإفك وظنوه أمرًا هينًا.

فقد أدبهم الله ﷻ وطهرهم بإقامة الحد عليهم، فكانوا عبرة لغيرهم من المؤمنين.

وليس في هذا إشكال، ولكن الإشكال في أن ينجو من الحد الذي تولى كبر هذه الشائعة وسيرها بين الناس، وهو عبد الله بن أُبي.

والسبب كما يقول ابن القيم أنه: "**كَانَ يَسْتَوْشِي الْحَدِيثَ، وَيَجْمَعُهُ، وَيَحْكِيهِ، وَيُخْرِجُهُ فِي قَوَالِبِ مَنْ لَا يُنْسَبُ إلَيْهِ، وَقِيلَ: الْحَدُّ لَا يَثْبُتُ إلَّا بِالْإِقْرَارِ أَوْ بِبَيِّنَةٍ، وَهُوَ لَمْ يُقِرَّ بِالْقَذْفِ، وَلَا شَهِدَ بِهِ عَلَيْهِ**"[1]، أي أن حد القذف إنما يقع على من يتفوه به بصريح القول.

عباد الله إن الله ﷻ أغلظ القول على مثل هؤلاء الذين يقعون في أعراض النساء أو الرجال، إذ إن النساء شقائق الرجال في الأحكام.

فقال الله ﷻ عن هؤلاء الذين يقعون في الأعراض: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [النور: ١٩]، ﴿ **وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ** ﴾[النور: ٤].

فعلى المسلم كما علمتنا هذه القصة أن يفعل كما فعل فضلاء الصحابة عندما قالوا: ﴿ **مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾** ﴾[النور: ١٦]، واستصحبوا حال من اتهم بسوء قبل ذلك الاتهام، فلم يؤثر عليهم ما استجد من الأمر.

---

[1] زاد المعاد لابن القيم رحمه الله (٣/٢٣٦).

فلننظر عباد الله إلى إخواننا، فكم يقذف بعضنا بعضًا؟!! وذلك إما عن طريق السباب؛ إذ إنك إذا سببت أحدًا بأمه أو أبيه، وأظهرت في الشتم نوعًا من الزنا بأنه يُفعل فيه أو فيها أو العكس؛ فإن هذا بهتان عظيم.

فلو أنك رميت امرأة أو رجلا وإن وجدت شبهة، فرميتهما وقلت عنهما إنهما يفعلان الفحشاء، فأنت في شرع محمد ﷺ محكوم عليك بأن تجلد ثمانين جلدة، ولا يقبل منك شهادة أبدًا، أي تكون فاسقًا إلا أن تتوب، بل أقول حتى إن رأيت جريمة الزنا بعينك؛ فلا يحق لك أن تتكلم فيها حتى عند ولى الأمر إلا أن يكون معك ثلاثة شهداء، فتكونون أربعة.

ويستدل بذلك الفقهاء في كتبهم، كما جاء في الأثر: "**أَقْبَلَ رَهْطٌ مَعَهُمُ امْرَأَةٌ حَتَّى نَزَلُوا فَتَفَرَّقُوا فِي حَوَائِجِهِمْ، فَتَخَلَّفَ رَجُلٌ مَعَ امْرَأَةٍ، فَرَجَعُوا وَهُوَ بَيْنَ رِجْلَيْهَا، فَشَهِدَ ثَلَاثَةٌ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ رَأَوْهُ يَهُبُّ كَمَا يَهُبُّ الْمِرْوَدُ فِي الْمُكْحُلَةِ، وَقَالَ الرَّابِعُ: أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي لَمْ أَرَهُ يَهُبُّ فِيهَا رَأَيْتُ سِخْتَلَيْهِ يَعْنِي خُصْيَتَيْهِ، يَضْرِبَانِ اسْتَهَا وَرِجْلَاهَا مِثْلُ أُذُنَيْ حِمَارٍ، وَعَلَى مَكَّةَ يَوْمَئِذٍ نَافِعُ بْنُ الْحَارِثِ الْخُزَاعِيُّ، وَكَتَبَ إِلَى عُمَرَ، فَكَتَبَ عُمَرُ: إِنْ شَهِدَ رَابِعٌ بِمِثْلِ مَا شَهِدَ الثَّلَاثَةُ؛ فَقَدِّمْهُمَا أَجْلِدْهُمَا، وَإِنْ كَانَا مُحْصَنَيْنِ؛ فَارْجُمْهُمَا، وَإِنْ لَمْ يَشْهَدْ إِلَّا بِمَا كَتَبْتَ بِهِ إِلَيَّ؛ فَاجْلِدِ الثَّلَاثَةَ، وَخَلِّ سَبِيلَ الرَّجُلِ، قَالَ: فَجَلَدَ الثَّلَاثَةَ، وَأَخْلَى سَبِيلَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ**"[1]، نعم لولي الأمر أن يعزر هذا الذى اختلى بالمرأة، ولكن أن يرمى بالزنا فالله لا يرضى بذلك إلا بأربعة شهداء.

﴿ **لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ** ﴾ [النور: ١٣]، فاحذر عبد الله واحذري أمة الله من القذف بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، فمن الناس من إذا قلت لهم هذه المرأة التي في هذا المكان فيقول لك (**اللهم استر على**

---

[1] القصة مروية في كتاب شرح معاني الآثار (٦١٣٦)، وفي كتاب الدلائل في غريب الحديث (٢٧٣) بلفظ مقارب، وصحح إسنادها العيني رحمه الله في نخف الأفكار (٤٨٥/١٤).

ولايانا)، وهذا قذف بطريقة خبيثة وغير مباشرة، بل بطريقة قريبة من أسلوب زعيم المنافقين.

فاحذر من أن تخوض في أعراض الناس حتى لا تخسر كل حسناتك يوم القيامة، وربما تأخذ من السيئات، فقد قال ﷺ: **"إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ"**[1].

نسأل الله العافية، فإن وجدت مثل هذه القاذورات؛ فانصح الفاعل، وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر، فإن استجابوا؛ فخيرا، وإلا؛ فأبلغ المسؤولين.

ثانيا: صلح الحديبية

فخرج المؤمنون وعددهم قريب من ألف وأربعمائة وذلك في ذى القعدة من السنة السادسة.

حتى وصلوا الحديبية في جنوب مكة وخلأت القصواء، ثم أتى إلى الرسول ﷺ بديل ابن ورقاء، فقال له رسول الله ﷺ: **"إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهِكَتْهُمُ الْحَرْبُ وَأَضَرَّتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاءُوا؛ مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً، وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ فَإِنْ أَظْهَرْ؛ فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلَّا فَقَدْ جَمُّوا، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، (صفحة العنق) وَلَيُنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ"**.

ثم رجع بديل وأخبرهم، فذهب إلى الرسول ﷺ عروة بن مسعود، فلما رأى من أمر الرسول ﷺ والصحابة ما تعجب منه رجع لقومه، وقال لهم: **"أَيْ قَوْمِ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ، وَكِسْرَى، وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا، وَاللَّهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ**

[1] رواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٥٨١).

فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمُ؛ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ؛ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ؛ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فَاقْبَلُوهَا"، فذهب إليه سهيل ابن عمرو فقال النبى ﷺ: "لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ"، فقال سهيل: "هاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الْكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ، فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ باسْمِكَ اللَّهُمَّ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَاللَّهِ لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اكْتُبْ باسْمِكَ اللَّهُمَّ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللَّهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلَا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَاللَّهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ ﷺ: لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: عَلَى أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَنَطُوفَ بِهِ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللَّهِ لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ، أَنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً، وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ، فَكَتَبَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ، وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ، وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا، قَالَ الْمُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا؟".

فجرى الصلح بين المسلمين وأهل مكة على وضع الحرب بينهم عشر سنين، وأن يأمن الناس بعضهم بعضًا، وأن يرجع عنهم عامه ذلك، حتى إذا كان العام المقبل قدمها وخلوا بينه وبين مكة فأقام بها ثلاثًا، وأن لا يدخلها إلا بسلاح الراكب والسيوف في القرب، وأن من أتانا من أصحابك لم نرده عليك، ومن أتاك من أصحابنا رددته علينا، وأن بيننا وبينك صدورا سليمة للمحافظة على العهد، لا سرقة ولا خيانة.

فقالوا يا رسول الله نعطيهم هذا فقال ﷺ: "إِنَّهُ مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ، فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ؛ وَمَنْ جَاءَنَا مِنْهُمْ؛ سَيَجْعَلُ اللَّهُ لَهُ فَرَجًا وَمَخْرَجًا"[1]، فقال عمر بن الخطاب: "فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي، قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ، قَالَ: فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ، إِنَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ، قُلْتُ: أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: بَلَى، أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ، قال عمر: فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالًا".

فلما فرغ النبي ﷺ من كتابه، قال لأصحابه: "قُومُوا فَانْحَرُوا، ثُمَّ احْلِقُوا، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَتُحِبُّ ذَلِكَ؟ اخْرُجْ ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ، نَحَرَ بُدْنَهُ وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا")[2].

وإلى هنا تنتهي هذه المقطوعة الطيبة وهذه الباقة العطرة، والآن كما تعودنا: ما هو فقه هذه الباقة؟ وكيف نجعل ذلك نجاحًا لحياتنا وتحديدًا لأهدافنا؟

---

[1] رواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٧٨٤).

[2] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٢٧٣١).

أولًا: تحقيق العبودية:

فالنظرة الأولى لهذه الشروط تدل على أنها مجحفة بحقوق المسلمين مرضية لكبرياء قريش وحميتها الجاهلية، ولكننا عبيد، وقد قرر الشرع، فلا بد أن نتهم عقلنا، ونتذكر أن الله هو الإله ونحن العبيد، أنه القادر ونحن الضعفاء، إن أمر الصلح هذا كان مظهرًا للتدبير الإلهي المحض، وقد تجلى فيه عمل النبوة وأثرها كما لم يتجل في أي عمل أو تدبير آخر، فقد كان نجاحه سرًا مرتبطًا بمكنون الغيب المطوي في علم الله وحده، ولذلك انتزع دهشة المسلمين، فأبرز الله تعالى أمرًا واضحًا وهو الفرق الجلي بين أمرين: بين وحي النبوة وبين تدبير الفكر البشري، بين توفيق النبي المرسل وبين تصرف العبقري المفكر، بين التدبير الإلهي الذي يأتي من فوق دنيا الأسباب ومظاهرها وبين الانسياق وراء إشارة هذه الأسباب وحكمها، ولهذا يقول تعالى ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾[الفتح: ٣]، أي نصرًا فريدًا في بابه من شأنه أن ينبه الأفكار السادرة والعقول الغافلة.

فيا ليت نيات الخير والشر تؤتي ثمارها الحلوة والمرة بالسرعة التي ظهرت في عهد الحديبية الآنف، فلم تمر أيام طوال على إبرامه حتى كان تشدد المشركين فيه وبالًا عليهم، فأخذوا يشتكون من النصوص التي فرضوها.

وقد نظر المسلمون كذلك مبهورين إلى عواقب التسامح البعيد الذي أبداه النبي ﷺ، فوجدوا من بركاته ما ألهج ألسنتهم بالحمد.

١. لقد انفرط عقد الكفار في الجزيرة منذ تم العهد:

لقد كانت قريش تعتبر رأس الكفر وحاملة لواء التمرد والتحدي للدين الجديد، وعندما شاع نبأ تعاهدها مع المسلمين خمدت فتن المنافقين الذين يعملون لها، وتبعثرت القبائل الوثنية في أنحاء الجزيرة، فاتسع نشاط المسلمين الثقافي، والسياسي، والعسكري، ونجحت دعايتهم في تألف قبائل غفيرة وإدخالها في الإسلام.

يقول الزهري: "فَمَا فُتِحَ فِي الإِسْلامِ فَتْحٌ قَبْلَهُ كَانَ أَعْظَمَ مِنْه"[1]، يقصد على صلح الحديبية.

قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾[الفتح: ١ - ٣].

٢. المسلمون الذين أسلموا من قريش و لم يستطيعوا أن يذهبوا إلى الرسول ﷺ من أجل المعاهدة ومنهم أبو البصير الذي جمع سبعين ثائرًا من الذين أسلموا و لم يلحقوا بالرسول ﷺ منهم أبو جندل بن سهيل بن عمرو، ضيقوا الخناق على قريش، فلا يظفر بأحد منهم إلا قتله، ولا تمر بهم عير إلا قطعوها.

وإذا يقريش ترسل إلى رسول الله ﷺ تناشده الرحم أن يؤوي إليه هؤلاء فلا حاجة لها بهم، وبذلك نزلت قريش عن الشرط الذي أملته تعنتًا وقَبِلَه المسلمون كارهين.

ثانيًا: الأمر المطلق يجب على الفور:

وإلا فلم غصب الرسول ﷺ لتأخرهم عن التحلل، ولو كان الأمر على التراخي؛ ما غضب الرسول ﷺ، فإن ما أوجبه الله عليك من صلاة، من حج، من زكاة، من كفارة؛ فإنه يجب عليك على الفور.

ثالثًا: انضباط الرسول ﷺ ببنود المعاهدة:

ولو كانت ظاهرها مجحفة، ولو كانت مع الكفار، ولو كانوا محاربين، إن كلمة معاهدة في الإسلام كلمة لها وزنها ولها مقتضاها، مهما كانت شخصية الذي تعاهده ومهما كانت بنود هذه المعاهدات.

---

[1] تاريخ الطبري رحمه الله (٦٣٨/٢).